أ.د. خالد نعيم الشناوي

ثنائية الاستعمال اللغوي عند العرب

أولاً: ثنائية الصوائت (بين الحركة والتسكين)

لاشك ان الكثير من الظواهر اللغوية التي تتمثل ببنية الكلمة قد مرت بمراحل من التطور حتى استوت على الحال التي هي عليها في اللسان العربي اي الاستعمال اللغوي الذي صدر عن العرب، و من يتصدى لدراسة تلك الظواهر اللغوية، ولاسيما الصوتية منها بوصفها استعمالات لغوية صدرت عن العرب، يلحظ في طبيعتها الاستعمالية تباينا نطقيا، وهذا ما أشكل على مسجلي اللغة ورواتها في عملية تصنيفها بيئيا، لان التباين في الاستعمال والأداء راجع إلى التنوع المكاني الذي صدرت عنه تلك الاستعمالات اللغوية إذ تمثلت هذه الظواهر او الاستعمالات اللغوية بيئات لغوية، وصف بعضها بالفصيح وهذا هو الوصف العام لجملة من الاستعمالات اللغوية، وفي نظرنا يدخل هذا الوصف في باب التحديد أو التحديث الأولي لتلك البيئة، والامر في هذا منوط بما قال به الرواة وأهل اللغة فيما دونوه من ظواهر لغوية فضلا عن بيان بيئاتها التي صدرت عنها، و لكن القارئ وفي أدنى موازنة بين ما صنف من كتب عُنيت بالاستعمال اللغوي عامة[1]، وبين الكتب التي عُنيت بالرواية اللغوية فضلا عن تحديد بيئاتها، يلحظ أن العربي أو ابن بيئة ما قد يلتمس وجوه الصحة من اللغات والاستعمالات اللغوية، إذ يستعمل ما يتناسب وطبيعة أدائه وثقافته اللغوية، وإن كانت هذه الوجوه والاستعمالات في زمن متأخر فيما يخص عمل الرواة والنحاة، فيها من النقض لمذهب اللغويين والنحويين، الذين اكتفوا بالتنوع المكاني الذي وصف عندهم بالفصيح من دون تحديد منهم للنوع اللغوي، لذلك جاءت بعض الاستعمالات اللغوية موسومة ببيئة معينة دون غيرها حتى باتت تعرف هذه اللغة بلغة قبيلة كذا، وظل هذا الأمر إلى يومنا هذا، وكانت بعض هذه الظواهر اللغوية تذهب بمستعمل اللغة الى ثنائية الاستعمال، اي القول بما كان مستعملا في لهجة ما والى ما كان يعرف بالركام اللغوي او استعمال الظاهرة وهي على الحال التي انتهت إليها واصبحت ظاهرة عامة دعت اليها جملة من الاسباب التي اوجدتها من قبل. ومن تلك الظواهر ظاهرة تسكين الحرف المتحرك، أو تغاير الحركة من ضمٍ الى فتح أو الى كسر أو استبدال الحركة من كسرٍ الى فتح اذ جنحت العربية الفصحى الى الفتح دون الكسر الذي كان تتسم به العربية فضلا عن بعض اللغات السامية (الجزرية) من قبل وهذا من قبيل الثنائية اللغوية الصوتية. لذلك دعت الحاجة الى البحث عن اصول هذه الظاهرة وتوجيهها توجيها صوتيا او صرفيا يتناسب و طبيعة الأداء اللغوي.

الحركة والتسكين في الاسم:

إنَّ النَّظر في لغة بعض العرب كـ: أسد و تميم وكندة نجدهم يسكنون ما كان متحركاً بضم أو بكسر في موضع العين أو اللام من الكلمة طلباً للتخفيف، والعمل يفصح عن الثنائية اللغوية في الاستعمال، من سكن فلا تثريب عليه ومن جاء به على الاصل فتلك هي الوجهة المطلوبة، قال سيبويهُ في هذا: (هذا بابُ الإشباعِ في الجرّ والرفعِ وغيرِ الإشباعِ والحركةُ كما هي، فأمّا الذين

---

١) أعني بها الكتب التي عنيت بتدوين لغة العرب، اللغة النفعية والأدبية، وهذا ما يتمثل بكتاب سيبويه وما تلاه من مصنفات عنيت بالشأن نفسه.

يُشبعون فيمطّطون، وعلامتُها واوٌ وياءٌ وهذا تُحكمه لك المشافهةُ. وأمّا الذين لا يُشبعونَ فيختلسون اختلاساً وذلك قولك: يَضْرِبُها، ومنْ مأمَنكَ، يسرّعون اللفظَ. ولا يكونُ هذا في النصبِ؛ لأنّ الفتحَ أخفُّ عليهم. وقد يجوزُ أن يسكّنوا الحرفَ المرفوعَ والمجرورَ في الشعرِ، شبّهوا ذلك بكسرةِ (فخِذ) حيثُ حذفوا فقالوا: فَخْذُ، وبضمةِ (عَضُدِ) حيث حذفوا فقالوا: عَضْد؛ لأنّ الرفعةَ ضمةٌ والجرةُ كسرةٌ)[٢].

و وثق هذا الاستعمال بقول المغيرة بنِ عبدِ اللهِ المعروفِ بالأُقَيْشِرِ الأسديّ:

رُحْتِ وفي رِجْلَيْكِ ما فيهما ... وقد بدا هَنْكِ مِنَ المئزرِ[٣]

إذ شبّهَ هَنْكِ بعضدٍ فأسكنَهُ[٤]، ويرى ابنُ جنّيّ في ذلك – اختلاس الحركة – غرضاً من أغراضِ البدوِ وفيه لطفُ أسرارِهم حتى إنهم لم يضايقوا أنفسَهم وخفّفوا على ألسنتِهم بأنْ اختلسوا الحركاتِ اختلاساً وأخفوها فلم يمكّنوها في أماكنَ كثيرةٍ ولم يُشبعوها[٥]، فحُذفتْ هذه الحركاتُ بغية التخفيفِ[٦]، ومثله قول أبي نخيلة يعمرُ بنُ حزنٍ.

إذا اعوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قوّمِ ... بالدَوّ أمْثالَ السَّفينِ العُوّمِ[٧]

ومثله قول امرئِ القيسِ:

فاليومَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثماً من اللهِ ولا واغلِ[٨]

إذ حُذفتْ حركةُ الإعرابِ وسُكّنَتْ الباءُ من الفعلِ (أشْرَبْ) وأُشمّتْ وفي ذلك ضربٌ من التخفيفِ[٩].

و نقل عن لغة تميم وبكر تسكينهم ما كان متحركا في موضع العينِ و اصله التحريك وقيل إنهم يسكنون ذلك استخفافاً وهو في الاصل متحركٌ وذلك قولُهم في (فَخِذ): (فَخْذ) وفي (كَبِد): (كَبْد)، وفي (عَضُد): (عَضْد) وفي (الرَّجُل): (رَجْل)، وفي (كَرُمَ الرَّجُلُ): (كَرْم)، وفي (عَلِمَ): (عَلْم)، وهي لغةُ بكرِ بنِ وائلٍ وأناسٍ كثيرٍ من تميم[١٠]، إذ تُركتْ العينُ في الثلاثيّ والفاءُ قبلها كذلك فتوالتِ الحركاتُ، وهنا يحدثُ لتواليهما ضربٌ من إعلالٍ لهما، فاستُروحَ حينئذٍ إلى السكونِ فصارَ ما في الثلاثيّ خفيفاً مرضياً[١١].

وقال سيبويهُ[١٢] (وقالوا في مَثَلٍ: (لم يُحْرَمْ من فُصِدَ له))[١٣].

ومن البكريينَ قال أبو النجمِ الفضلُ العجليُّ:

لو عُصْرَ منه البانُ والمسكُ انْعَصَرْ[١٤]

وعُلّلَ ذلك أنهم كرهوا أنْ يرفعوا ألسنتَهم عن المفتوحِ إلى المكسورِ، والمفتوحُ أخفُّ عليهم، فكرهوا

---

٢) الكتابُ : ٤ : ٢٠٢-٢٠٣.

٣) الكتابُ : ٤ : ٢٠٣(الشاهد دون نسبة)، وقد نسب للأقيشر في شرح أبيات سيبويه ٢ : ٣٩٠، وخزانة الأدب : ٤ : ٤٨٧، والبيت في ديوانه : ٤٣.

٤) يُنظر: الخصائص : ٢ : ٣٢٥.

٥) المصدر نفسه : ١ : ١١٧-١١٨.

٦) المصدر نفسه : ٢ : ٩٩.

٧) الكتابُ : ٤ : ٢٠٣، و الشاهد منسوب في شرح أبيات سيبويه : ٢ : ٣٩٨، الخصائص : ٢ : ١٠٠.

٨) الكتابُ : ٤ : ٢٠٤، خزانة الأدب : ٤ : ١٠٦.

٩) يُنظر: الخصائص : ٢ : ١٠٠.

١٠) الكتابُ : ٤ : ١١٣.

١١) يُنظر: الخصائص : ١ : ١٠٦.

١٢) الكتابُ : ٤ : ١١٤.

١٣) يُنظر المثل في جمهرة الأمثال : ٢ : ١٩٣.

١٤) الكتابُ : ٤ : ١١٤.

أن ينتقلوا من الأخفّ إلى الأثقلِ، وكرهوا في (عُصِرَ) الكسرةَ بعد الضمةِ كما يكرهون الواوَ مع الياءِ في مواضعَ[١٥]. وقيلَ منْ رامَ التخفيفَ سكّنَ عينَ الكلمةِ وذلكَ في المكسورِ والمضمومِ دون المفتوحِ لأنّ في ذلك استثقالاً[١٦].

الصوت وتباين الحركة بين الضم والفتح

غالباً ما يكون ذلك بين لهجتين فصيحتين منهما يخرج الابتكار اللغوي، وقيل الذي دعا الى ضم فاء الكلمة او فتحها هو الانسجام الصوتي، نقل عن أهل الحجاز يضمون أول بعض الاسماء كـ (كُسالى، و سُكارى)، وعلى ذلك قراءة قوله تعالى: (وإذا قاموا الى الصلّوة قاموا كُسالى)[١٧]، ومثله (يُلحدون، و يَلحدون)[١٨].اما التميميون فيجنحون الفتح فيقولون (كَسالى)، وهذا لا يطرد بحيث يمكننا القول بأن الحجازيين يميلون الى الضمّ في كلّ شيءٍ وأن التميميين يميلون الى الفتح، بل نجد هذا التباين بين اللهجتين في الاستعمال، فنجد الحجازيين يفتحون في موضع العين إذ يقولون (زَكَن) بالفتح، وتميم يقولون (زَكُن) بالضم[١٩]، وكذلك يقولون بالضم (يبخَلون) بالفتح، والحجازيون يقولون (يبخُلون) بالضم، والامر لايقف عند أوائل المباني او عين الكلمة بل تعدى لام الكلمة، فطيء يقولون (السؤدُد) وتميم تجنح الى الفتح (سؤدَد).

الصوت وتباين الحركة بين الفتح والكسر

و نجد هذه الظاهرة عند الحجازيين في بناء اسم الفعل على وزن "فعالِ" بكسر اللام، أما اسد فيجنحون الى فتحها، وقيل إن كسر (يهيمة) لغة تميم، والفتح لغة[٢٠]، وثمة مبانٍ كثر قد تمثلت بهذه الثنائية الاستعمالية ولا سيما في النص القرآني، فمثال ذلك ما ورد عن الزجاج أنه يقرأ (الحَج والحِج) بفتح وكسر الحاء، وقيل الفتح هو الاصل وهذا منقول عن أهل الحجاز، والتميميون يميلون الى الكسر[٢١] ومن تلك الالفاظ (الرَّضاعة، و الرّضاعة) بفتح الراء وكسرها، وهما لغتان[٢٢]، وكذلك لفظة (هيهاتِ) بالكسر، ونسبت الى أسد وتميم، وقيل إن اللفظ في هذه الحال يدل على الجمع، والفتح منها (هيهاتَ) يدل على المفرد، ونسبت الى أهل الحجاز[٢٣].

---

١٥)المصدر نفسه : ٤ : ١١٤.

١٦) يُنظر: الخصائص : ٢ : ١٢٠.

١٧) النساء : ١٤٢.

١٨)يُنظر معاني القران للاخفش : ٢ : ٥٣٨.

١٩)يُنظر إعراب القران للنحاس : ٤ : ٣٠٩.

٢٠)يُنظر المصدر نفسه : ٢ : ٣.

٢١)ينظ معاني القران واعرابه : ١ : ٤٤٧.

٢٢)يُنظر اعراب القران للنحاس : ١ : ٣١٦.

٢٣)يُنظر معاني القران للفراء : ٢ : ٢٣٥، والتبيان في اعراب القران : ٢ : ٢٥٠_٢٥١

الصوت وتباين الحركة بين الضم والكسر

يرى بعض الدَّارسين ان الضم ينسب الى اللهجات العربية القديمة كـ تميم واسد وبكر بن وائل، والكسر ينسب الى البيئة الحجازية، ومن امثلة ذلك قولهم (قُنوان) بلغة قيس، و (قِنوان) بلغة الحجاز[٢٤] وقولهم (أُسوة) بالضم لغة قيس و (إسوة) بالكسر لغة الحجاز، وهذا ما نقله ابن جني في المحتسب[٢٥]، ولكننا وجدنا بكر بن وائل يكسرون في بعض المواضع ولا سيما في حروف الاضمار، إذ خالفوا العرف اللغوي في نطق تلك الحروف، قال سيبويه: (قال ناس من بكر ابن وائل: (من أحلامِكِمْ) و (بِكِمْ) شبهها بالهاء لأنها علم اضمارٍ وقد وقعت بعد الكسرة فاتبع الكسرةَ الكسرةَ، حيث كانت حرف إضمار وكان أخف عليهم من أن يضما بعد أن يكسر)[٢٦] وقد نقلت هذه اللغة سماعاً من أهل هذه اللغةِ من نقل عن الحطيئةِ:

وإن قال مَوْلاهمْ عَلَى جُلّ حادِثٍ مِن الدّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أحلامِكِمْ رَدّوا[٢٧]

وقد عُرفتْ هذه الظاهرةُ فيما بعدُ – أي بعدَ تأليفِ الكتابِ - بالوَكْمِ[٢٨]، ووُصِفَتْ بأنها لغةٌ رديئةٌ جداً[٢٩] وذهبَ المبردُ إلى أنها غلطٌ منهم فاحشٌ[٣٠].

والاستعمال الثاني يتمثل بحركة الهاء التي هي ضمير للغائبين، قال سيبويهُ: (وعُلمَ أنّ قوماً من ربيعةَ يقولُ: مِنْهِمْ أتبعوها الكسرةَ، ولم يكنِ المسكّنُ حاجزاً حصيناً عندهم)[٣١]. ويُطلعُنا الفرّاءُ في معاني القرآن على لغتينِ في الهاءِ التي هي ضميرُ الغائبينَ، ويرى لكلّ لغةٍ مذهباً في العربيةِ، إذ يقولُ: (فأمّا من رفعَ الهاءَ فإنّه يقولُ اصلها رفعٌ في نصبِها وخفضِها ورفعِها، فأمّا الرفعُ فقولُهم (هُم قالوا ذاك) في الابتداءِ، ألا ترى أنها مرفوعةٌ، ولا يجوزُ فتحُها ولا كسرُها، فتُرِكَتْ في (عليهُم) على جهتِها الأولى وأمّا من قالَ (عليهِم) فإنّه استثقلَ الضمةَ في الهاءِ وقبلها ياءً ساكنةً، فقالَ: (عليهِم) لكثرةِ دورِ المُكنّى في الكلامِ، وكذلك يفعلونَ بها إذا اتصلتْ بحرفٍ مكسورٍ مثلِ (بِهِم) و (بِهُم) يجوزُ فيه الوجهان مع الكسرةِ والياءِ الساكنةِ)[٣٢]، أما إذا كان المسكّنُ غيرَ الياءِ نحو(من، وعن) فالساكنُ حاجزٌ غيرُ حصينٍ من تأثرِ الهاءِ بالصوتِ المكسورِ قبلَ ذلكَ الساكنِ، وقد سُمّيَتْ هذه الظاهرةُ (بالوهمِ)[٣٣] وقيل هي مطّردةٌ في كلّ حالاتِ هذا الضميرِ[٣٤] –عندَ أناسٍ من ربيعةَ – سواءٌ سُبقَ بكسرٍ أم بياءٍ أم لم يسبقْ، إلا أنّا عدمْنا هذا القولَ في الكتابِ ولم يشرْ إليه سيبويهُ عندما وصفَ هذه الظاهرةَ.

الصوت وتباين الحركة بين الفتح والكسر في أوائلِ الأفعالِ المضارعةِ للأسماءِ

قال سيبويهُ: (هذا بابُ ما تُكسَرُ فيه أوائلُ الأفعالِ المضارعةِ للأسماءِ كما كَسَرْتَ ثانيَ الحرفِ حينَ قلتَ فَعِلَ، وذلكَ في لغةِ جميعِ العربِ إلاّ أهل الحجازِ، وذلك قولُهم: أنتَ تِعْلَمُ ذاك، وأنا إعْلَمُ، وهي تِعْلَمُ، ونحن نِعْلَمُ ذاك)[٣٥]. وقال الرضيُّ في شرحِ الشافيةِ: (إنّ جميعَ العربِ إلاّ أهل الحجازِ

---

٢٤) يُنظر اعراب القران للنحاس : ٢ : ٨٦.
٢٥) يُنظر المحتسب : ١ : ١٧٣.
٢٦) الكتاب : ٤ : ١٩٧.
٢٧) الكتابُ : ٤ : ١٩٧، المقتضب : ١ : ٢٧٠.
٢٨) يُنظر: الاقتراح : ١١٣.
٢٩) يُنظر: الكتابُ : ٤ : ١٩٧.
٣٠) يُنظر: المقتضب : ١ : ٢٦٩-٢٧٠.
٣١) الكتابُ : ٤ : ١٩٦.
٣٢) معاني القرآن : ١ : ١٢، المقتضب : ١ : ٣٧، ويُنظر: إعراب القرآن للنحاس : ١ : ٢١، الحجة في القراءات السبع : ٢١، والتيسير في القراءات السبع : ٢٧، شرح التسهيل لابن مالك : ١ : ١٤٤.
٣٣) يُنظر: المزهر: ١ : ١٢٢.
٣٤) يُنظر: محاضرات في فقه اللغة : ١٣٥.
٣٥) الكتابُ : ٤ : ١١٠، ويُنظر: ٤ : ١١١-١١٣.

يجوّزونَ كسرَ حرفِ المضارعةِ سوى الياءِ في الثلاثيّ المبنيّ للفاعلِ، إذا كانَ الماضي على فِعل بكسرِ العينِ. وكذا في المثالِ والأجوفِ الناقصِ والمضاعفِ، نحو إيجَلُ وَ إخَالُ• وإشقَى وإعَضَ، والكسرةُ في همزةِ (إخالُ) وحدة أكثر وأفصحُ من الفتحِ)[٣٦]، وعلّلَ سببَ الكسرِ في الأحرفِ المضارعةِ بأنّها كُسرتْ تشبيهاً لكسرِ عينِ الماضي، ولم يكسرِ الفاءَ لهذا المعنى لأنّ اصله في المضارعِ السكونُ، ولم يكسرِ العينَ لئلاّ يلتبسَ (يَفْعَلُ) المفتوحُ و (يَفْعِلُ) المكسورُ فلم يبقَ إلاّ كسرُ حروفِ المضارعةِ، ولم يكسروا الياءَ استثقالاً، إلاّ إذا كانَ الفاءُ واواً نحوَ: (ييجَلُ) لاستثقالِهم الواوَ التي بعد الياءِ المفتوحةِ وكرهوا قلبَ الواوِ ياءً من غيرِ كسرِ ما قبلَها[٣٧]، ويرى أحدُ الباحثين أنّ الفتحَ في أحرفِ المضارعةِ حادثٌ في اللغةِ العربيةِ القديمةِ، بدليلِ عدمِ وجودِهِ في اللغاتِ الساميةِ الأخرى، ووجودِ ظاهرةِ الكسرِ في اللغاتِ الساميةِ كالعبريةِ والسريانيةِ والحبشيةِ، فضلاً عمّا بقيَ من الكسرِ في بعضِ اللهجاتِ العربيةِ القديمةِ[٣٨]، ويرى الدكتورُ المطّلبي أنّ لهجةَ تميمٍ (كانتْ تفتحُ معَ حرفِ المضارعةِ حينَ يكونُ الحرفُ (ياءً) وتُكسَرُ في مواضعَ ممّا يقودُنا – والتعبيرُ له – إلى الاستنتاجِ بأنّها تمثلُ مرحلةً وسطى بينَ الكسرِ – الذي وُجِدَ في اللغاتِ الساميةِ القديمةِ في أحرفِ المضارعةِ – وبينَ الفتحِ الذي استقرتْ عليه عربيةُ القرآن ولهجةُ أهل الحجازِ)[٣٩].

إنّ اختيارَ فتحِ أحرفِ المضارعةِ له ما يبرّرُهُ إذا علمْنا أنّ حركةَ عينِ المضارعةِ تتمثلُ بثلاثِ حركاتٍ (فتحة – كسرة – ضمة)، إذْ نجدُ أنّ الانتقالَ في النطقِ من كسرٍ – الذي هو في أدنى اللسانِ – إلى فتح، والفتحُ أدخَلُ إلى الفمِ من الكسرِ، والارتدادُ من الكسرِ إلى الفتحِ فيه من الصعوبةِ والجهدِ العضليّ، فضلاً عن الضمةِ التي هي أبعدُ ما تكونُ عليه من الكسرةِ، لذلك اختيرَ الفتحُ في الأحرفِ المضارعةِ ليتناسبَ من حيثُ الأداء والميلُ إلى الاقتصادِ في المجهودِ مع الكسرةِ والضمةِ في عينِ الأفعالِ المضارعةِ للأسماءِ[٤٠].

وقد قيل في هذه الظاهرة التي يطرد فيها كسر حرف المضارعة انها تنسب الى بيئات لغوية تمثلت بقبيلة بهراء وقيس واسد وربيعة، وقيل عامة العرب كانت على هذه اللغة ،وقال ابن جني في الخصائص: (واما تلتلة بهراء فانهم يقولون: تعملون و تفعلون و تصنعون بكسر أوائل الحروف.)[٤١]، وقد نقل في كتاب الابانة عن معاني القراءات انهم قرأوا: نستعين من سورة الفاتحة بكسر النون وقيل هي لغة مشهورة حسنة،[٤٢] ونقل عن الفراء انها هي مفتوحة عنده في لغة قريش[٤٣].

ومن هنا نتوجه بالسؤال: هل يصح ان نطلق على هذه الظاهرة بأنها لهجة (لغة مذمومة)؟ ثم اين نحن من الرجل الذي سأل ابا عمرو بن العلاء، قال له: أخبرني عما وضعت مما سميت عربية، ايدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال له: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟فقال ابو عمرو: احمل على الأكثر واسمي ما خالفني لغات[٤٤].

• ((إن الفعل (إخال) المشهور فيه كسر همزة المتكلم، ولكنّ بني أسد كانوا ينطقونها مفتوحة)). يُنظر: في اللهجات العربية : ٨٨، يُنظر اللهجات العربية في التراث : ١ : ٣٨٨.

٣٦) شرح الشافية : ١ : ٩٩.

٣٧) يُنظر: شرح الشافية : ١ : ٩٩، الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل و اللغة الموحدة : ١٥٥

٣٨) فصول في فقه اللغة : ١٠٦.

٣٩) لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة : ١٣٦، ويُنظر: دراسات وتعليقات في اللغة : ٧٨.

٤٠)يُنظر: الاطلس اللغوي في كتب التراث،دراسة في كتاب سيبويه : ٦٣،للدكتور : خالد نعيم الشناوي ط(١) ٢٠١٠م

٤١) الخصائص : ٢ : ١٣

٤٢)يُنظر: الابانة : ٩٢

٤٣)يُنظر: الصاحبي في فقه اللغة : ٢٥،و المزهر في علوم العربية : ١ : ٢٠٢

٤٤)يُنظر اخبار النحويين البصريين :

وعلى هذا القول لابد من الاخذ بمعيار الاغلبية بدقة كاملة لان الذي نقل عن هذه الظاهرة، بانها لغة الاستعمال لعامة العرب، وعلى الرغم من ذلك رفضت واصبحت من قبيل اللغات المذمومة، وفي حديث ابن فارس في باب القول في افصح العرب نجده فاضل بين الاستعمالين اذ جعل الفتح افصح من الكسر: (وكانت قريش مع فصاحتها. الا ترى انك لا تجد في كلامهم. ولا الكسر الذي تسمعه من اسد وقيس)[٤٥].

نقول ان اقول بفصاحة قريش لا يعني ان ظاهرة كسر احرف المضارعة غير فصيحة؛ لأن قريشا لم ترتكن الى الكسر شأنها في ذلك شأن الهمز الذي هرعت عنه، لذلك يمكن القول بان الاستعمال الفصيحِ لم يَكُنْ مُرتبطاً ارتباطاً وَثيقاً بالتنوعِ اللغويّ، أي لَمْ يربطْ هؤلاءِ اللغويون المثالَ اللغويَّ بذلكَ المجالِ الجغرافيّ بمعنى أنَّهم لم ينسبُوا الظواهرَ اللغويةَ بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ إلى بيئاتِها اللغويةِ بَل اكتفَوا بوصفِ هذهِ البيئاتِ بالفصيحةِ دُونَ تحديدِ النوعِ اللغويّ.[٤٦]، فضلا عن ذلك ان هذه اللغة قد تمثلت ببعض القراءات القرآنية وما نقل الينا من كلام العرب، وهذا لا يعني ان هذه الظاهرة انتهت عند الفعل (اخال) بل نجد قولهم الذي اورده ابن جني في المنصف للفعل(اخاف) فضلا عن قولهم: (انت تركب وتذهب) بالكسر، وكذلك (تبيع وتقول) لانهم في هذه الحال يصححون لئلا يلتبسا بالفعل نحو قولهم: (تخال وتخاف) في مضارع (خات و خفت)[٤٧]، وقد قرأ بعض القراء: (نستعين) من سورة الفاتحة، بكسر النون وقيل هي قراءة يحيى بن وثاب والاعمش[٤٨]، وروي عن الاعمش انه قرأ (فتِمسَّكم النار)[٤٩]، بالكسر، ونقل عن الزجاج أن كثيرا من العرب تكسر التاء من قوله تعالى(يوم تِبيضُّ وجوه وتِسودُّ وجوه)[٥٠]، وقرأ يحيى بن وثاب والاعمش(فكيف إِسى على قومٍ كافرين)[٥١] بكسر الهمزة من الفعل، وقوله (ولا تركنوا)[٥٢] بكسر التاء وهي قراءة ابن وثاب[٥٣]، والامر في ذلك لم يقف عند احرف المضارعة بل ذهب به بعض القراء الى جملة من المباني الفعلية والاسمية نحو (سألتم)[٥٤] بكسر السين قياسا على هذه اللغة وقيل هي قراءة ابراهيم النخعي[٥٥]، وروي عن ابن عباس انه قرأ (كما سئل)[٥٦] بكسر السين[٥٧]، ونقل ايضا كسرهم النون من قوله (سنفرغ)[٥٨]، و(اضطره)[٥٩] بكسر الهمزة، و(اني لا اضيع)[٦٠] بكسر الهمزة، ومن الاسماء قراءة قوله (ذرتينا وذرية)[٦١] بكسر الذال، وقوله(بهيمة)[٦٢] اذ قيل فيها ان العرب تجنح الى الكسر اعني كسر

---

٤٥)الصاحبي : ١٩
٤٦)يُنظر: التوزيع اللغوي الجغرافي : ٢٦(د خالد نعيم)
٤٧)يظر: المنصف : ١ : ٣٢٢
٤٨).يُنظر: إعراب القران للنحاس : ١ : ١٧٣.
٤٩) هود/١١٣
٥٠) آل عمران/١٠٦
٥١) الاعراف/٩٣
٥٢) هود/١٣٣
٥٣)يُنظر مختصر في شواذ القران : ٦١
٥٤) البقرة /٦١
٥٥)مختصر شواذ القرأن : ٧
٥٦) البقرة/١٠٨
٥٧)مختصر في شواذ القران : ٩،٣١،٣٣،٢٤.
٥٨) الرحمن : ١٣
٥٩) البقرة : ١٢٦
٦٠) ال عمران/ ١٥٩
٦١) البقرة/١٢٨
٦٢) المائدة/١٠

الفاء طلبا للماثلة الصوتية (الاتباع) فيقولون: بعير سعير رغيف رحيم وانا شيخ ضعيف بالكسر، وكذلك قوله(من اجل ذلك)[٦٣] بكسر الهمزة وهي قراءة ابو جعفر المدني، اما من الشعر فقد انشد ابن جني قول العقيلي كونه من مصاديق القول على ذلك قال:

إخالــك موعــدي ببنــي جفيــف وهالــة إننــي أنــاك هــالا[٦٤]

ومن ذلك قول المرار في الفعل (تِعلم) بكسر التاء، قال:

قــد تعلــم الخيــل ايامــا تطاعنهــا مــن اي شنشــنة انــت ابــن منضــور[٦٥]

فضلا عن ذلك احتفظت لنا بعض المصادر اللغوية بالفعل (تئثم) بكسر التاء في قول حكيم بن معية الربعي رجزا، قال:

لــو قلــت مــا في قومــك لــم تيــثم يفضــلها فــي حســب و ميســم[٦٦]

اراد ما في قومها أَحد يفْضُلها. وفي حديث سعيد بن زيد: ولو شَهِدْتَ على العاشر لم إيثَم؛ هي لغة لبعض العرب في آثَم، وذلك أَنهم يكسرون حَرْف المُضارَعة في نحو نِعْلَم وتِعْلَم، فلما كسروا الهمزة في إِأْثَم انقلبت الهمزة الاصلية ياء[٦٧].

ومثل ذا الفعل (اخال) كقوله:

فغبــرت بعــدهم بعــيش ناصــب واخــال انــي لاحــق مســتتبع[٦٨]

وقال الاخر:

قــد كــان قومــك يحســبونك ســيدا واخــال انــك ســيد معيــون[٦٩]

وقال الاخر:

نَــجَوْت بِقُــوفِ نَفْسِــك، غيــر أَنــي إخــالُ بــأَنْ سَيَــيْتَمُ أَو تَئِــيمُ[٧٠]

وأَنشد قال أَبو ذؤيب:

أَمِنْــك البَــرْقُ أَرْقُبُــهُ، فَهَاجــا فَبِــتُّ إِخالُــه دُهْمــاً خِلاجــا؟[٧١]

وقال كعب بن زهير:

ارجــو وآمــل ان تــدنو مودتهــا ومــا خــال لــدينا منــك تنويــل[٧٢]

وكذلك قول زهير:

ومــا أَدرِي، وســوفَ إِخــالُ أَدري أَقَــوْمٌ آلُ حِصْــنٍ أَمْ نِســاء؟[٧٣]

وقيل في الحديث: (ما إخالك سرقت)[٧٤]

ونقل عن المرزوقي في شرح الحماسة أن الكسر في تلك المباني لغة طائية[٧٥]

---

٦٣) المائدة/٣١

٦٤)يُنظر شرح حماسة المرزوقي : ١ : ٢٤٨.

٦٥)يُنظر: المفضليات : ٢٠

٦٦) فصول في فقه اللغة : ١٢٤،وتهذيب الالفاظ العامية : ٢٠٧

٦٧ يُنظر: لسان العرب : ١ : ٣٣٣.

٦٨) المنصف : ١ : ٣٢٢

٦٩) لسان العرب : ١٣ : ٣٠١

٧٠)يُنظر محاضرات في فقه الغة : ١٣٠

٧١)يُنظر لسان العرب : ٣ : ٧١.

٧٢)ديوانه : ٤٠

٧٣) يُنظر لسان العرب : ١٢ : ٥٠٥

٧٤)يُنظر لسان العرب : ١١ : ٢٢٧.

٧٥)يُنظر تاج العروس : ٢٨ : ٤٥٠

وقال الشاعر:

ولـــربَّ مثلـــك قـــد رشـــد بغيّـــه وإخـــالُ صـــاحب غيّـــه لـــم يرشـــد[٧٦]

بكسر حرف المُضارعة ليُعْلَم أنّ ثاني الفعل الماضي مكسور، كما ذهب إليه سيبويه في هذا النحو؛ قال: وهي لغة هذيل في هذا الضرب من الفعل، ويرى تشم رابين ان استعمال هذيل وطيء للصورة العربية الشائعة من كسر حرف المضارعة من الفعل (اخال) سيجعل الامر معقدا بالنسبة للتحديد الجغرافي لهذه الظاهرة، ويرى في انتماء قبيلة طيئ الى المنطقة التي تسودها تلك الظاهرة امرا طبيعيا لأنها من الصعب ان تستعمل صورة اخرى غير تلك التي صدرت عنها[٧٧]، وهذ يعني ان لطيئ توسعا في اللغات التي صدرت عنها، وهذا يعني انها من حيث البيئة الجغرافية كانت أكثر اتساعا والامر في ذا يتح لها توظيف بعض الاثار اللغوية في لغة الاستعمال.

وقد شكك رابين في روايات القدماء حول نسبة هذه الظاهرة الى الاسد، اذ يرى في ذلك تصحيفا حلت فيه اسد محل الازد وهذا عنده أكثر الامور احتمالا لأنه يرى ثمة اشكال اخرى للفعل (اخال)في لغة أهل الحجاز، وربما هذا الامر يفصح عن شكل قديم لهذا الفعل، لأنه يرى الجمع بين الازد وقريش فضلا عن هذيل يعطي بعدا جغرافيا متماثلا[٧٨]، وهذا ما يقودنا للقول بان هذه الافعال هي اشكال مقيسة على صيغ قديمة.

التوجيه اللغوي لهذه الظاهرة عند القدماء والمحدثين

لقد اختلف علماء العربية في هذه الظاهرة، اذ يذكر الاخفش في كسر الياء من الفعل(يخطف)بقوله: (ومنهم من قال: يخطف، بكسر الخاء لاجتماع الساكنيين ثم كسر الياء، اتبع الكسرة الكسرة وهي قبلها كما اتبعها في كلام العرب كثيرا، يتبعون الكسرة في هذا الباب الكسرة يقولون: قتلوا، و فتحوا)[٧٩] ثم استدل بقول ابي النجم الهذلي من الرجز:

تدافع الشيب ولم يقتل

وقال: (وسمعنا من العرب مكسوراً كله، فهذا مثل (يِخطفُ) إذا كسرت ياءها لكسر خائها، وهي بعدها فأتبع الاخر الأول)[٨٠]، فعلة كسر الأول عند الاخفش هو التجانس الصوتي بين أحرف المضارعة والفاء الفعل.

أمَّا ابن جني فأنه يذهب في كسر الياء خاصةً في الفعل المضارع المبدوء بها الى علة صوتية يقول: (فأما قولهم (يِيجلُ) ونحو ذلك فأن اصله الفتح، وإنما كسروا الياء لتنقلب الواو ياءً، فالكسر عارض)[٨١] وقد استدل ابن جني على هذا التحول الصوتي لمبنى الفعل ببعض المباني التي أُبدال الواو منها الى ياء (لان الواو الساكنة إذا إنكسر ما قبلها أبدلت ياء نحو ميزان وميقات، وهذه أقيس وفيه بعدٌ لكسرة الياء)[٨٢]، أن مدار الامر في كسر حروف المضارعة من الفعل (وجل) كونه مكسور العين في الماضي، ومفتوحها في المضارع لذلك عمدوا الى قلب الواو الى ياء لاستثقالهم الواو بعد الياء المفتوحة، ونتيجة لذلك كسروا تلك الحروف لتتسق مع الياء المبدلة من الواو، كي تخف الكلمة

---

٧٦)يُنظر لسان العرب : ١١ : ٢٢٧.

٧٧)يُنظر: اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة : ١٣٨

٧٨) اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة : ١٣٨

٧٩)معاني القران : ١ : ٢١٠

٨٠)المصدر نفسه : ١ : ٢١٠_٢١١.

٨١)المنصف : ١ : ١١٧

٨٢)المصدر نفسه : ١ : ٢٠٢.

عند النطق بها[٨٣]، ويرى الرضي الاسترآبادي أن كسر احرف المضارعة، تنبيهاً على كسر عين الفعل في الماضي، وجعل الكسر تخضع له كلَّ حروف المضارعة على السواء إلا الياء للثقل، لكنها في حال كون فاء الكلمة واواً نحو (يِيْجل) تكسر هذه الياء لاستثقالهم الواو التي بعد الياء المفتوحة، وكرهوا قلب الواو ياء من غير كسر ما قبلها[٨٤]، ومن القدماء من علل كسر احرف المضارعة التي أوله همزة وصلٍ مكسورة، وأن هذه الافعال إنما كسرت أوائلها كما كسرت أوائل (فَعِل)، وقد عدَّ ابن هشام هذا الكسر من الشواذ فالفعل (إخال) انما كسرت همزة الثلاثي شذوذاً مع أن الاصل فتح الهمزة كما في قول ابي ذوئب الهذلي:

فغبرتُ بعدهم بعيش ناصبٍ وإخالُ أنني لاحقٌ مستتبعُ

إلا أن بني اسد وحدهم يفتحونها على ما يقتضيه القياس[٨٥] فالملاحظ على جهد القدماء اللغوي في تصويب وتعليل هذه الظاهرة يكمن في باب المخالفة بين الماضي والمضارع في الفعل الثلاثي (فِعلَ، يفعل) أو من باب المجانسة الصوتية، أو أن يكون من تداخل اللهجات العربية، أما في حال الخروج على تلك العلل لا يمكننا الا القول بشذوذ تلك الاستعمالات اللغوية، وهذا ما قصده بعض اللغويين.

اما المحدثون فلهم توجيهاتهم اللغوية التي دفعوا بها لتصويب تلك الظاهرة الصوتية، فقد نقل الدكتور خليل يحيى ما قاله المستشرق الالماني (بارث يعقوب) بأن هذه الظاهرة تخضع لقانونٍ صوتي، كان موجودا ابتداءً في اللغات السامية الغربية ولاسيما العبرية والاوجارية والسريانية فضلاً عن اللهجات العربية القديمة، وقيل إن مسألة كسر احرف المضارعة كانت مختصة في بنية الفعل (فِعلَ) دون غيره في اللغتين العبرية والسريانية، وقد أنتقل هذا الاثر الصوتي في ما بعد الى بقية الاوزان الاخرى، فصارت كلها مكسورة احرف المضارعة إلا في اللغة العبرية ولاسيما في الافعال الحلقية الفاء والجوفاء والمضعفة فقد بقيت فيها الاحرف المضارعة مفتوحة[٨٦].

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن كسر حروف المضارعة ظاهرة قديمة تمثلت في اللغات السامية القديمة، وأن فتح حروف المضارعة ظاهرة حادثة على العربية، يقول: (وهذه الظاهرة سامية قديمة، توجد في العبرية والسريانية، والحبشية، والفتح في أحرف المضارعة حادث في العربية، بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الاخرى، وبدليل ما بقي من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة، وهناك دليل ثالث على اصالة الكسر في حروف المضارعة وهو استمراره حتى الان في اللهجات العربية الحديثة. إذ تقول مثلا "مين يِقرأ، ومين يِسمع، بكسر حروف المضارعة في لغة التخاطب)[٨٧]، وقد صنفت هذه الظاهرة من قبيل المندثر من الاستعمالات اللغوية أي ما يعرف بالركام اللغوي[٨٨]، إلا أن الدكتور ابراهيم انيس يذهب الى عكس هذا التصور وهذا ما يتضح بقوله بأن الكسر هو الاصل عند الجماعات السامية و(نرجح أن الاصل في شكل حروف المضارعة هو ما شاع في اللهجات الحجازية من الفتح في كلّ الحالات، وقد انحدر هذا الاصل الى هذه اللهجات من السامية الأولى، ثم تطور الى الكسر في معظم اللغات السامية، غير أن تطوره في لهجات العرب لم

---

[٨٣])يُنظر لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة : ١٣٤.
[٨٤])يُنظر شر شافية ابن الحاجب : ١ : ١٤١.
[٨٥]) يُنظر أوضح المسالك : ١ : ٣٠٧.
[٨٦])يُنظر دراسات في اللغة العربية،لدكتور خليل يحى نامي : ٤٠.
[٨٧])فصول في فقه اللغة : ١٢٥.
[٨٨])يُنظر المصدر نفسه : ١٢٦.

يشمل حالة (الياء) لأن الياء المشكلة بالكسر نادرة الشيوع في النطق العربي، ولان الياء مع الكسر أشق منها مع الفتح، مما قد يتعارض مع حكمة التطور الى الكسر، لذلك احتفظت معظم القبائل التي تطور في لهجتها شكل حرف المضارعة بفتحة حين يكون (ياء))[٨٩] أما الدكتور صبحي الصالح فقد ذهب الى التقسيم اللهجي في تحديد هذه الظاهرة الى حجازية غربية وقريشة ونجدية شرقية تميمية، ونقل ما روي عن الاخفش أن كلَّ من ورد علينا من الاعراب لم يقل إلا: تِعلم[٩٠] بكسر حرف المضارعة وهذا النص يشعر بأن المسألة ليست تقسيماً لهجياً بقدر ما هو استعمال لغوي، وعلى الرغم من اجماع اغلب الباحثين العرب على أن هذه الظاهرة ظاهرة سامية قديمة ترشحت الى لغة العرب، إلا أن العربية جنحتْ الى الفتح كونه ينسجم مع بنية الفعل العربي المستعمل والأكثر دورانا في الاستعمال ألا وهو الفعل الحلقي العين واللام، لذلك استعمل الفتح مراعاة لتلك الاصول، اما الكسر فيرى الطيب البكوش ميل العربية الى المقابلات الحركية وتمييز الصيغ بعضها عن بعض، فتختص بذلك كل صيغة ماضية بصيغة واحدة في المضارع إذا خشي الالتباس، وهذا الالتباس لا يوجد إلا في المضارع المفتوح العين، لذلك خصوا (فَعل) بفتح المضارعة وميزوا عنه (فَعِلَ) بكسر حرف المضارعة[٩١]، وجعل الدكتور ابراهيم انيس من هذه الظاهرة من باب الانسجام الحركي[٩٢].

وفي خلاصة القول لا نقول بشذوذ هذه الظاهرة أو هي من قبيل الركام اللغوي، كون اللغة العربية الفصيحة اتت على تلك اللغة ولاسيما ما ورد في النص القرآني للفعل (إخال) وما جاء به الشعر العربي كما في الفعل (إخاف) وهذا ما سمعه ابن جني من رجلٍ فصيح من عُقيل:

فقومي هم تميم يا مماري وجوثة ما إخاف لهم كثاراً [٩٣]

فلذلك نتعامل مع هذا الاستعمال كما نتعامل مع الاستعمال الاخر، كونه صورة أو قالبا صرفيا ثانياً ترشح عن الاستعمال اللغوي، ولا يمن لنا أن نخطئ من ينطق به لان الفصحاء من العرب قد استعملوه في مخاطباتهم.

ثانياً: ثنائية الصوامت

من تلك الظواهر الصوتية انتخبنا ظاهرة الهمز والتسهيل كونها خيرَ مثالٍ على ما يعرف بالثنائية اللغوية التي هي حاصلة بين كثير من الأصوات الصامتة في لغة العرب يقال إن البيئة الحجازية بيئة تسهيل وتليين وهذا يتعارض مع وصفهم اللغة الحجازية ولاسيما لغة قريش. إنَّ النَّظر في طبيعة هذا الظاهرة الصوتية الاستعمالية يجعلنا ندرك أن المتكلم العربي يركن إلى ثنائية الاستعمال، فهي ظاهرة قلقة غير منضبطة قواعديا لذلك تحاول ان تسلك الطريق نفسه الذي سلكته اللغات السامية من قبل في لغة الاستعمال المعتاد للغة، ولعل بعض الدارسين لا يراها تطرد في ما يعرف باللغة الادبية، نقول: إن ثمة نصا معياريا يحول دون ذلك ألا وهو النص القرآني، ولكن الذي خفف وسهل في بعض آياته، فتعليله ميسور مقبول أنه إلى التخفيف قصد، أما من همز فجاء به على الاصل وهذا ما تطلبه العربية الفصحى، أما القراءات القرآنية فهي من القراء السبعة، إذ كانت قراءاتهم أوثق القراءات، وما طرأ من تحقيق أو تخفيف كلاهما استعمال وارد عن العرب الفصحاء، فلا طائل من التخصيص والتحديد البيئي لظاهرة الهمزة لأننا وجدنا أتفاق أهل الأمصار في تحقيق

---

[٨٩])في اللهجات العربية : ١٢٢.
[٩٠])دراسات في فقه اللغة : ٦٧.
[٩١])يُنظر التصريف العربي،للطيب البكوش : ٨٨.
[٩٢])يُنظر في اللهجات العربية : ١٢٢.
[٩٣])يُنظر المنصف : ١ : ٣٢٢.

بعض المواضع وتسهيلهم في مواضع أخرى، فضلا عن همز غير المهموز في بيئة التسهيل، إذ وردت ظاهرتا الهمز والتسهيل على لسان من لم يتصف بهما حسب التحديد الذي أقره القدماء، وهذا الأمر يشعر بوجود ثنائية لغوية، فضلا عن تفارض اللغات والانفتاح البيئي لتلك الظاهرة، لأننا وجدنا ابا عمرو بن العلاء التميمي يوافق عيسى بن مينا المدني في تسهيل الهمز بل ذهب في احد الاستعمالات اللغوية الى اسقاط الهمزة من قوله: (اولياء أولئك)، وكذلك وجدنا الحجازيين يهمزون بل ذهبوا الى همز غير المهموز، ووجدنا التميميين والاسديين يسهلون في مواضع الهمز، وهذا لا يعنى أن ثمة ارباكا في عملية التلفظ والعرب في الاعم الاغلب يجنحون الى التسهيل، فهذا ما لا يقول به أحد لأن للهمزة دورا في عملية التلفظ عند العرب القدماء، بوصفهم جزءًا من أرومة اللغة السامية التي اكتشفت للعالم الأبجدية الهجائية، إذ وضعت لكل صوت لغوي رمزا كتابيا، وقد تميز صوت الهمزة لدى واضعي الأبجدية من الساميين القدماء بوصفها حرفا أو صوتا ساكنا، ووضعوا لها رمزا كتابيا مستقلا وحافظوا على كتابتها حتى بعد أن سُهلت في بعض اللغات السامية وأصبحت في النطق حرف مد[٩٤]. واللغة العربية حافظت على هذا الصوت وذهبت المذهب نفسه بوصفه رمزا كتابيا مستقلا. ومن هنا اعتمدت ثقافة الناطق العربي على مبدأ ثنائية الاستعمال لهذا النوع اللغوي الذي وصف من قبل بأنه استعمال لغوي مخصوص ببيئة ما، إذ اتسمت اللغة العربية الفصحى بظاهرة الهمز إلى جانب الكثير من الظواهر اللغوية التي أفصحت عن نظام وطبيعة لغة الاستعمال، ولاسيما الظواهر الصوتية، والقارئ لظاهرة الهمز في مباحث المتأخرين من القدماء فضلا عن المحدثين العرب، يجدهم قد ترسموا أثار القدماء الأوائل في تحديد بيئات هذه الظاهرة الصوتية، وإذا ما عنّ لباحث ما في هذا الموضوع نجده يهرع إلى تلك المقولات دون تدقيق وتمحيص، إذ يقول القدماء: إن أكثر الخصائص شيوعا في لغة أهل الحجاز تسهيلهم الهمز، والهمز يعني النبر، أي أنهم لا ينطقون الهمزة نطقا طبيعيا منبورا، إذ ما علمنا أنه حرف مجهور من أقصى الحلق[٩٥]. فضلا عن كونه صوتا صامتا حنجريا[٩٦]. وهذا الصوت هو المسؤول عن صعوبة النطق به لأنه صوت عسير، لا يخرج إلا بانحباس الهواء خلف الاوتار الصوتية ثم انفراجه فجأة، وهذه العملية تحتاج الى جهد عضلي كبير في عملية النطق تزيد على ما يحتاجه أي من الأصوات الاخرى[٩٧] وعلى الرغم من ذلك وكون اللهجة الحجازية هي مصدر من مصادر العربية الفصحى و عليها المعول في معرفة الغريب والنادر، فضلا عن كونها بيئة تسهيل وتليين، فقد اتصفت العربية الفصحى بظاهرة الهمز، لان العربي (الحضري و البدوي) من يؤثر الهمز في بعض استعمالاته اللغوية، الا انهم قالوا: أنها سمة من سمات البدو في وسط الجزيرة و شرقها [٩٨] وقد ذهب احد الباحثين المستشرقين[٩٩] في تعليل شيوع ظاهرة التسهيل في لغة أهل الحجاز، الى طبيعة اللغة العربية وانحرافها عن بعض الاصول اللغوية فضلا عن علاقتها بأخواتها الساميات(اللغات الجزرية) لكونها امتدادا لهن، اذ ذهبت مذهبهن الى نزعة الاستغناء عن هذا الصوت كونه صوتا إنحباسيا، وهذا ما اخذ يضعف في الآرامية حتى فقد كل قيمته الصوتية كساكن وهذا ما نلحظه في اللغة العربية الغربية حسب الروايات التي نقلت عن

---

٩٤) يُنظر: الأصوات اللغوية،د. إبراهيم انيس : ٨٠،٨١.

٩٥) يُنظر: سر صناعة الإعراب لابي الفتح عثمان بن جني : ١ : ٨٣.

٩٦) يُنظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية،د.عبد الراجحي : ١١٣.

٩٧) يُنظر: الأصوات اللغوية إبراهيم انيس : ٧٨، والتطور اللغوي (رمضان عبد التواب)مجلة مجمع اللغة العربية : ج : ٣٦، لسنة ١٩٧٥، و التنغيم اللغوي في القران الكريم، د.سمير ابراهيم، و، د.حيدر العزاوي : ١١٤،١١٨

٩٨) يُنظر: في اللهجات العربية،د.ابراهيم انبس : ٧٨. ٧٨

٩٩) يُنظر: اللهجات العربية القديمة في غرب جزير،تشم رابين : ٢٥٤ : .

مستعملي اللغة، بأنهم يذهبون بها مذهب التسهيل أي التخلص من الهمزة. أما اللغات الشرقية فكانت لهجاتها محتفظة إلى حد ما بهذا الصوت الاحتباسي الحنجري ولم تنافسها في ذلك من اللغات القديمة سوى اللغة الأوجاريتة[١٠٠]، أي أن أبناء هذه البيئة اللغوية (البدو) على حد تعبيرهم – تعودوا النبر في موضع الهمزة إذ يذهبون به إلى ضبط الإيقاع النطقي فضلا عن الإبانة عما يريدون من نطقهم لمجموعة من المقاطع المتتابعة السريعة الانطلاق على ألسنتهم، فموقع النبر في نطقهم كان دائما إبراز المقاطع[١٠١]، وهذا ما لا نلحظه في لغة أهل الحضر (حسب تلك الروايات) لان طبيعة الهمزة أدخل في الحلق من حيث المدرج الصوتي ولها نبرة كريهة – على حد قول الرضي – تجري مجرى التهوّع ثقلت بذلك على ألسنتهم، فخففوها واستعاضوا عن ذلك بطرائق صوتية كتسهيل نطق الهمزة، بتليينها أو إبدالها أو حذفها[١٠٢]. إلا أن هذا الأمر لا يطرد في لغة أهل التسهيل، لأنا وجدناهم يلتزمون التحقيق – وهذا ما يتعارض مع تحديد القدماء لظاهرة الهمز – في الأساليب الأدبية، إذ كانوا يلجأون إلى تحقيق الهمزة كلما عنّ لهم أمر جدي يتطلب استعمال اللغة الانموذجية، وهذا مروي عن بعض من نُسب إلى تلك البيئات اللغوية التي عرف عنها التسهيل سواء أكانوا أفرادا أم جماعات، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لربط التنوع اللغوي (التغاير اللهجي) بالتنوع المكاني، لان المادة اللغوية التي وصفت بعد روايتها لابد لها من أن ترتكن إلى ماهية المظهر التسجيلي الذي يقتضي جمعها وتوزيعها حسب تلك المرويات، ورسم خطوط التوزيع اللغوي بين تلك الهيئات اللغوية التي تمثلت بتلك المرويات اللغوية القديمة (أعني القراءات القرآنية) إذ لاقت هذه المرويات عناية الدارسين بتحديد بيئاتها اللغوية تحديدا جغرافيا من خلال المادة اللغوية الضخمة التي سجلت عن العرب – أعني الصحابة والتابعين ومن أخذ عنهم – التي تعد موردا مهما من موارد اللغة العربية الفصحى. وكان لظاهرة الهمز نصيب من هذا التحديد، إذ قالوا عن البيئة الحجازية: بيئة تسهيل وتليين والبيئة التميمية بيئة همز ونبر، إلا ان المدقق في تلك النصوص اللغوية الاستعمالية التي صدرت عن العرب يجد غير ما حدد على وجه الدقة والتثبت، إذ نجد – على سبيل الاستطراد – أن الطبري يختار من القراءات: (أرجه)[١٠٣] لأنها أفصح اللغات وأكثرها على السن فصحاء العرب وهو يعني تميم وأسد لأنهم يقولون: (أرجيته) بلغة التسهيل، والمتعارف عليه عند القدماء أن هذه البيئة بيئة همز ونبر، أما من همزها فهذا منقول عنده عن كلام بعض قيس إذ يقولون: أرجأت هذا الأمر[١٠٤]. وقيس من بيئة إقليم الحجاز[١٠٥].

ومن ذلك أيضا قراءة الجمهور (الذئب) بالهمز وهي لغة أهل الحجاز[١٠٦]. وقيل إن القارئ الحجازي نافع بن تميم المدني هو الوحيد الذي قرأ: (أنبئاء) في (أنبياء)[١٠٧]. وهو من البيئة الحجازية، لذا تعددت مناهج العرب في هذه الظاهرة الصوتية ويمكن أن نقف مع القارئ على بعض ما ورد من استعمالات قرآنية منسوبة إلى من قرأ بها مع بيان وتحديد البيئة اللغوية التي صدرت عنها.

---

١٠٠) يُنظر: اللهجات العربية القديمة في غرب جزير، ٢٥٤ وفي اللهجات العربية : ٧٨.

١٠١) يُنظر القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث عبد الصبور شاهين : ٣٠.

١٠٢) يُنظر: شرح الشافية : ٣ : ٢٥،والقراءات القرآنية ي ضوء علم اللغة : ٣٠ : ١٠٢.

١٠٣) الأعراف/ ١١١، الشعراء/ ٣٦.

١٠٤) تفسير الطبري(جامع البيان في تفسير القران)لابي جعفربن محمدبن جرير الطبري : ١٣ : ٢٠-٢٢، ١٤ : ١٠٤.

١٠٥) يُنظر: معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع لعبد الله عبد العزيز البكري : مادة(جزر)،صفة جزيرة العرب للحسن بن احمد الهمذاني٦٨ :

١٠٦) يُنظر: البحر المحيط لابي حيان الاندلسي : ٤ : ٤٠٦.

١٠٧) يُنظر: اللهجات العربية القديمة في غرب جزيرة العرب : ٢٥٧.

قرأ أبو عمرو بن العلاء التميمي البصري[١٠٨]. وابن كثير عبد الله الداري المكي[١٠٩]. وعلي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي[١١٠]. وعاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي[١١١]. وحمزة بن حبيب بن عمارة التميمي[١١٢]: (هم أحسن آثاثا ورءيا)[١١٣] (بهمزة) ورِءياً أي بهمزة ساكنة بعد الراء وهو من الرؤية أي: أحسن منظرا[١١٤]. وكان مذهب أبي عمرو بن العلاء تحقيق الهمزة الساكنة، فهو لا يهمزها سواء أكانت فاءً أم عينا أم لاما إلا أن يكون سكون الهمزة عارضا للجزم[١١٥]. وقد قيل الحجة في هذا لأنه قصد إلى رؤية المنظر والحسن ونسب محمد بن جرير بن يزيد الطبري[١١٦]، هذه القراءة إلى عامة قرّاء العراق والكوفة والبصرة[١١٧]. ولم تنسب إلى أهل مكة علما أن ابن كثير كان قاضي الجماعة بمكة وأحد القراء السبعة، و قال (وأولى القراءات في ذلك بالصواب من قراءة من قرأ (أثاثا ورِءْيا) بالراء والهمزة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن معناه المنظر وذلك هو من رؤية العين لا من الرؤية)[١١٨].

أما قراءة التسهيل فهذا وجه منقول عن أهل المدينة وهو مقبول جيد عند الفراء[١١٩]. وقيل قد يكون قارئه أراد الهمزة فأبدل منها ياءً فاجتمعت الياء المبدلة من الهمزة والياء التي هي لام الفعل فأدغمهما وجعلتا ياءً واحدة مشددة وهذا منقول عن الكسائي[١٢٠]. وقيل هي لغة ضعيفة إذ أجرى المخففة مجرى الاصلية وكسرت الراء لتناسب الياء، فضلا عن كون الواو في تقدير الهمزة (فلا يقوى إدغامها مما لم يقو الإدغام في قولهم (التزر) من (الآزار) و (التجر) من (الأجر)) [١٢١].

أما في قراءة قوله تعالى (تأكل مسنأته)[١٢٢]. فقد قرأ عاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي والأعمش سليمان بن مهران الاسدي[١٢٣]. وأبو سعيد الحسن بن يسار البصري[١٢٤]، بالهمز[١٢٥].

وقال الفراء (وزعم لي أبو جعفر الرؤاسي أنه سأل عنها أبا عمرو بن العلاء التميمي البصري فقال: (مسنأته) بغير همز، فقال أبو عمرو: لأني لا أعرفها، فتركت همزها)[١٢٦]. إن ما نقل عن أبي عمرو وقوله بعدم معرفتها قول فيه من عدم الدقة الشيء الكثير لكون صاحب القول علم من أعلام اللغة وراوية عن العرب الخلص وأحد القراء السبعة فمثله لا يقول ذلك، ولكن الاصل في ذا ما نقل عن الفراء بأن أبا عمرو له مذهب في تحقيق الهمزة الساكنة فهو لا يهمزها سواء أكانت فاءً أم عينا

---

١٠٨) يُنظر: غاية النهاية في طبقات القراء لبرجسرآسر: ١ : ٢٨٨.
١٠٩) يُنظر: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لاحمد بنمحمد بن خلكان : ٣ : ٤١.
١١٠) يُنظر المصدر نفسه : ٣ : ٢٩٥-٢٩٨.
١١١) غاية النهاية : ١ : ٣٤٦.
١١٢) المصدر نفسه : ١ : ٢٦١.
١١٣) مريم/٧٤
١١٤) يُنظر: إعراب القرآن لابي جعفر النحاس : ٣ : ١٨، وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد محمد بن يوسف : ٤٥٨، التبيان في اعراب القران لعبد الله بن الحسن العكبري : ٢ : ١٨٧.
١١٥) يُنظر: التيسير في القراءات السبع لابي عمر الداني : ٣٩.
١١٦) يُنظر: غاية النهاية : ٢ : ١٠٦.
١١٧) يُنظر: البحر المحيط : ٦ : ٢١٠.
١١٨) يُنظر: البحر المحيط : ٦ : ٢١٠.
١١٩) يُنظر: معاني القرآن لابي زكريا الفراء : ٢ : ٤٥.
١٢٠) يُنظر: التبيان في اعراب القران : ١ : ٥٢.
١٢١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل،لابي القاسم محمد بن عمر الزمخشري : ٢ : ٤١٩.
١٢٢) سبأ/١٤
١٢٣) يُنظر: غاية النهاية : ١ : ٣١٥.
١٢٤) وفيات الاعيان : ٢ : ٦٩.
١٢٥) يُنظر: معاني القرآن للفراء : ٢ : ٣١٠.
١٢٦) يُنظر: المصدر نفسه : ٢ : ٣١٠.

أم لاما إلا أن يكون السكون عارضا كالجزم، و هذا فيه نظر من وجهين: الأول نقل عنه أنه قرأ بالهمزة قوله تعالى (هم أحسن أثاثا ورءْيا)[١٢٧] فإذا كانت الهمزة الساكنة في ذا الموضع فالسكون ليس بعارض، اما الثاني فإذا كانت الهمزة متحركة ونقل عنه أنه قرأ بالهمز فهذا نقيض ما نقل عنه من طرائق التحقيق. فضلا عن ذلك ان اشتقاق الكلمة يدل على أنها مهموزة لأنها مشتقة من نسأته أي أخرته ودفعته[١٢٨]. وهذه اللفظة هي عينها في قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها)[١٢٩]، إذ قرأها أبو عمرو بن العلاء وابن كثير المكي، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي[١٣٠]. ومجاهد بن جبر المكي[١٣١]. وعاصم بن أبي الصباح العجاج الجحدري البصري[١٣٢]. بالهمز، أي (ننسأها) يريدون نؤخرها من النسيئة[١٣٣]. فلفظة ننسأها هي عينها التي ذهب بها أبو عمرو بن العلاء إلى التسهيل ولا مائز بينها سوى أن الأولى السكون فيها ليس بعارض والسكون هنا سكون عارض أي ان الكلمة معطوفة على فعل الشرط (ننسخ) واقتضت الحركة نفسها كما فعل ذا في قوله تعالى (هم أحسن أثاثا ورءْيا)[١٣٤].

ومن القراءات التي ذهب بها أهل التسهيل على حد قول القدماء، إلى الهمز قراءة قوله تعالى (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش)[١٣٥]. إذ قرأ نافع ابن عبد الرحمن المدني، وابن عامر الحصبي الدمشقي، وعبد الرحمن بن هرمز المدني[١٣٦]، والأعمش سليمان الاسدي، وزيد بن علي بن أحمد[١٣٧]، بهمز (معايش)[١٣٨]. وقيل ان أهل المدينة عامة يهمزون هذا الحرف[١٣٩]، ولم يجوزا الفراء وأبو جعفر النحاس ذلك وجعلوه لحنا لأن الواحد منها على وزن (مفعلة) والياء من اصل الكلمة وعلى هذا الأساس لا تهمز وإنما الذي يهمز ما كانت الياء فيه زائدة[١٤٠]. إلا أن المدقق في ما نقل عن هؤلاء القراء لا يحكم بما قال به الفراء وأبو جعفر النحاس، لأنهم قد اخذوا القرآن عن الخلفاء فهذا ابن عامر أخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل ظهور اللحن، وكان نافع يقرأ على سبعين من التابعين وهو من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذي لا يجهل والأمر نفسه بالنسبة للأعرج والأعمش وزيد بن علي[١٤١].

وقد وقف النحاة[١٤٢]، في وجه هذه القراءة وجعلوها من الخطأ. إلا أن الفراء التمس لها وجها بكون العرب يتوهمون في ذا ونحوه بأنها على (فعيلة) (لشبهها بوزنها في اللفظ، وعده الحروف، كما

---

١٢٧) مريم/٧٤

١٢٨) يُنظر: اعراب القران : ٣ : ٢٣١،والحجة في القراءات السبع لابي عبد الله الحسن بن خالويه : ١٨٧، الكشاف : ٣ : ٥٨٣، البيان : ٢ : ٣٥٢.

١٢٩) البقرة/ ١٠٦

١٣٠) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني : ٤ : ٩٠.

١٣١) غاية النهاية : ٢ : ٤١-٤٢.

١٣٢) غاية النهاية : ٢ : ٤٣٦.

١٣٣) يُنظر: معاني القرآن للفراء : ١ : ٥٦، والحجة في القراءات : ٢٣٦،والسبعة في القراءات : ١٦٨،و أمالي القالي لاسماعيلبن القاسم القالي : ١ : ٤٦.

١٣٤) مريم/٧٤

١٣٥) الأعراف/١٠

١٣٦) يُنظر: غاية النهاية : ١ : ٣٨١.

١٣٧) يُنظر: المصدر نفسه : ١ : ٢٩٨-٢٩٩.

١٣٨) يظر: اعراب القران للنحاس ٢ : ٤٢٦،والكشاف للزمخشري : ٢ : ٨٥،والمثل السائر لابن الاثير: ١ : ٣٣.

١٣٩) يُنظر: التبيان في تفسير القران لمحمد بن الحسن الطوسي : ١٢ : ٣١٦.

١٤٠) يُنظر: معاني القرآن : ١ : ٢٧، إعراب القرآن : ٢ : ٢٤٦، التبيان للعكبري : ١ : ٤٧٨.

١٤١) يُنظر: القراءات واللهجات في ضوء علم اللغة الحديث اعبد الصبور شاهين : ١٨٠،والبحر المحيط : ٤ : ٢٧٠-٢٧١.

١٤٢) يُنظر: الكتاب لسيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر: ٢ : ٣٦٧،و المنصف لأبن جني : ١ : ٣٠٩.

جمعوا مسيل الماء أمسله شبه بفعيل وهو مفعل وقد همزت العرب المصائب وواحدتها مصيبة، شبهت بفعيلة لكثرتها في الكلام[١٤٣]. وعلى هذا النحو ثبت الهمز بالنقل عن القراء وهذا ما يوحي بثنائية الاستعمال،

كما قرأ أهل الحجاز (قل من كان عدوا لجبريل)[١٤٤] بلغة التسهيل والاصل فيه الهمز، وقد نقل صاحب التاج[١٤٥]، إن (جبريل) من غير همز أشهر اللغات وأفصحها وهذا ما نقل عن أهل الحجاز وثبت بالمصحف، إلا أن (معائش) ثبت بالمصحف على الاصل دون همزة، والذين همزوا هذا الحرف هم من البيئة الحجازية فلماذا هذا التباين في تخريج صحة هذه القراءة، علما أن تميما وقيسا قد قرأوا بتحقيق الهمزة (جبرائيل) وهي لغة كثير من أهل نجد واختارها الزجاج وقال عنها هي أجود اللغات[١٤٦]، لأنها جاءت على الاصل.

إن التدقيق في هذه المرويات يشعر بوجود ثنائية في هذا الاستعمال اللغوي أي أن هذه الحروف المهموزة صور مقابل للصيغ غير المهموزة، وهذا الأمر لا يحول دون تقارض اللهجات أي أن الظاهرتين (الهمز والتسهيل) قد وردتا على لسان من لم يتصف بهما[١٤٧]. فضلا عن كون المباني الصرفية قد تتمثل بأكثر من صورة لفظية، وهذا ما يعرف باللغة الثانية لذلك الحرف، وهذا ما لمسه أبو حسان الأندلسي حينما خرج قراءة الحسن بن يسار البصري للفعل (سُئل) إذ قرأ الحسن البصري (سُئِل) من قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل)[١٤٨]. قال:(اللغة الثانية في (سأل) أن تكون عين الكلمة واوا وتكون على (فعِل) بكسر العين، فتقول: سلت أسأل، كخفت وأخاف، اصله: سَوُلْت، وعلى هذه اللغة تكون قراءة الحسن وقراءة من أشم، وتخريج هاتين القراءتين على هذه اللغة أولى من التخريج على أن اصل الالف همز، فأبدلت الهمزة ألفا فصار مثل قال وباع. لأن هذا الإبدال شاذ لا يقاس وتلك لغة ثانية، فكان الحمل على ما كان لغة أولى من الحمل على الشاذ غير المطرد)[١٤٩]، وهذا ما أشار إليه العكبري بتمثيله يقولون: ساولته[١٥٠]، لان هذا الأمر يشعر بوجود ثنائية في اللفظ فضلا عن تلفظ الهمزة وان المد الحاصل في صيغة (سِئل) ليس تطورا صوتيا من (سُيل) وهي صورة من الفعل (سُيل) الذي ماضيه (سأل) ولكنه صيغة المبني للمجهول الحجازية العادية من الفعل الحجازي (سال) الذي اصله (سول) وهو مقابل الصيغة المهموزة (سأل)[١٥١]. لأن هذا القول يتناسب مع الرواية التي نقلت عن الإمام علي (عليه السلام) بأن قريشا ليسوا بأصحاب نبر ولولا أن جبرائيل نزل بالهمزة على النبي (ص) ما همزنا، أي ثمة صيغ غير مهموزة مقابل تلك الصيغ المهموزة، ولعل الحسن البصري -وهو من البيئة التي تروم الهمز- أقتفى رسوم أهل الحجاز في نطق هذا الحرف وذهب في مذهب التسهيل[١٥٢].

وقرأ عاصم بن أبي النجود الاسدي الكوفي (التناوش) بلغة التسهيل علما أنه من أبناء البيئة التي

---

١٤٣) معاني القرآن للفراء : ١ : ٢٧٠.
١٤٤) البقرة/٩٧
١٤٥) يُنظر: تاج العروس في شرح جواهر القاموس للزبيدي : ١٠ : ٣٥٩ مادة (جبر).
١٤٦) يُنظر: البحر المحيط لابي حيان : ١ : ٣١٨.
١٤٧) يُنظر: القراءات القرآنية في ضوء علم الغة الحديث : ٣٢، وسيبويه وا لقراءات دراسة تحليلية لاحمد مكي الانصاري : ٧٢-٧٣.
١٤٨) البقرة/ ١٠٨
١٤٩) البحر المحيط لابي حيان : ١ : ٣٤٦.
١٥٠) التبيان في اعراب القران للعكبري : ١ : ٩٣.
١٥١) يُنظر: اللهجة العربية القديمة في غرب جزيرة العرب : ٢٦٦-٢٦٨.
١٥٢) يُنظر: وفيات الاعيان : ٢ : ٦٩، ووغاية النهاية : ١ : ٢٣٥.

تحقق الهمز، وقرأ أبو عمرو بن العلاء التميمي البصري وحمزة بن حبيب التميمي الكوفي والكسائي وبتحقيق الهمز[١٥٣].

وقرأ سعيد بن جبير الاسدي بالولاء الكوفي قوله تعالى (فبدأ بأوعيتهم قبل إعاء أخيه)[١٥٤] وعلة ذلك إنما فرّ إلى الهمز لثقل الكسرة على الواو، فضلا عن كونه من البيئة التي تروم الهمز[١٥٥]. وقيل هي لغة لهذيل يقولون: أكان وكان[١٥٦].

ومن هنا نقول ان التحديد الذي طالعنا به القدماء والذي اوردناه في ما تقدم من القول، لا ينبغي للباحث الوقوف عنده والركون اليه، لان اعتماده يفضي الى تحديد النوع اللغوي (المثال، او الشاهد اللغوي) الى جانب التحديد البيئي، بحيث يكون هنالك خط فاصل يميز بين الاستعمالين، وينبغي -ونحن في هذه الحال- ان نقول: ان ثمة انفتاحا بيئيا، او ثنائية في الاستعمال، ولا نكتفي بالتحديد الأولي الذي صدر عن القدماء، ولابد من الذهاب الى ابعد من ذلك، ولنا أن نعول على المقولات التي جعلت من اصوات الحلق- وصوت الهمزة منها-، قسيما مشتركا بين العربية الفصحى واللغات الجزرية (اللغات العروبية) وهذه الأصوات هي سمة من سماتها المشتركة والتي ميزتها عن غيرها من اللغات اللاتينية والهندأوربية، والعمل على ما كان مستعملا بالفعل من خلال النصوص الواردة عن مستعملي اللغة النفعية والادبية، في الكشف عن تلك الثنائيات اللغوية.

---

١٥٣) كتاب السبعة في القراءات : ٥٣٠، والكشف عن وجوه القراءات السبع : ٢ : ٢٠٨.

١٥٤) يوسف/٧٦

١٥٥) سر صناعة الاعراب : ١ : ١١٢، والكشاف : ٢ : ٤٦٣، والتبيان في اعراب القران : ٢ : ٦٦.

١٥٦) سر صناعة الاعراب : ١ : ١١٤.